رجال الفكر في المانيا

قبل اواخر القرن التاسع عشر ، لم تكن صناعة القلم حرفة في المانيا . ذلك لان الشعب الالماني لم يكن يأخذ احداً بعين الجد الا اذا كان ذا منصب ، او رتبة ، او لقب . ولعل السبب في ذلك يعود الى تأثير الفكرة اللوثرية القائلة بان على المرء ان يكون ذا رسالة في الحياة . او لعل السبب يعود الى أن الوطن الالماني خلا آنئذ من عاصمة كبرى واحدة يحتشد فيها عدد وافر من القراء . فكان على الاديب ان يسعى للفوز برعاية امير ما من امراء الولايات الالمانية .

وكانت مهنة التدريس ارفع المهن مكانة عند الناس . ومن الادلة على ذلك اعتبار المدرس حاملاً لرتبة كولونيل في الجيش الامبراطوري . ناهيك بما كان له من نفوذ بعيد واثر فعال في حياة البلاد . فهو الذي حمل لواء النهضة الفكرية في اواخر القرن الثامن عشر ، كما تشهد اعمال كانت وهيغل وشلنغ وفخته والمعروف عن شوبنهور ولودويغ وفورباخ انهم كانوا يشعرون بمرارة الحرمان من لقب « استاذ » . وطالما حاولوا الفوز به فلم يحالفهم النجاح .

على ان مهنة التدريس قد انحطت قليلاً في السنوات الاخيرة . وذلك لان العهد الهتلري لم يعزز من جهته هذه المهنة ، ولان العهد الحالي من جهته ايضاً قد «امرك» المجتمع الالماني . وبالرغم من هذا كله ، نجد الرأي العام الالماني ، حتى في عام ١٩٥٤ ، ما يزال مجمعاً على اعتبار الاستاذ في الجامعة اعلى مكانة من سواه .

ويعتقد الاستاذ الالماني ان مهمته الاشتغال بالنظريات . فهو لذلك لا يتدخل في السياسة . اما اذا دعته الدولة الى مؤازرتها في مهمة ما ، انصرف الى تلبية الدعوة على انها فرض وواجب . ولا فارق لديه بين مهمة واخرى ، اذ يعتبر تنفيذها واجباً منه ازاء السلطة . فلا تتجاوز مسؤوليته فيه الناحية التقنية منها .

ولقد عرفت ثورة ١٨٤٨ بثورة المفكرين . ففي ذلك الحين كان بين اعضاء المجلس الوطني في فرانكفورت عدد من الاساتذة لا يقل عن الثلاثمئة . ومع ذلك فقد اخفقت الثورة ، فاضعف اخفاقها مكانة « الاساتذة » عند الشعب وعند انفسهم فلم تعد القضية التي تواجههم هي كيف ينبغي تنظيم المجتمع ، بل بالحري كيف حققت المانيا ذلك القدر من النجاح . وهكذا انتصر هيغل على كانت ، وبسمارك على هيغل .

وفي هذه الاثناء كان الاديب الذي انصرف الى الكتابة على هواه ، قد بدأ يظهر الى حيز الوجود . فالقلق الذي ساد اوروبا في ركاب الفتوحات النابوليونية ، اتاح له فرصة ابراز اهميته في معالجة الاحداث وتوجيه الرأي العام . وقد لمع في هذه الحقبة عدد من الكتاب اخصهم بالذكر هاينريش هاين .

وكان بسمارك يعطف على الادباء والمفكرين ، ولكن حكومته لم ترفع من شأنهم كطبقة . فقد ظلوا اتباعاً تتنازعهم مختلف العقائد والتيارات الحزبية ، منها الكاثوليكية والديمقراطية الاجتماعية والماركسية .

وما كادت الحرب العالمية الاولى تذر قرنها حتى رأينا المفكرين يتناسون تهجمهم وتهكمهم على الدولة وينصرفون بكل قواهم الى تأييدها وشد ازرها ، سواء عن طريق السيف او عن طريق القلم . ولكنها ما وضعت اوزارها حتى اخذوا يتسابقون الى ملء الفراغ الذي احدثه ضياع السلطة . ولم يلبث ان فاز المحافظون منهم على المتطرفين ، فاذا بالجنرال هندنبرغ يقبض على ناصية الحكم ليعيد الى البلاد الاستقرار والامن . فكان من نتائج ذلك ان ذهبت نخبة بارزة من رجال الفكر الالماني ضحية تهوسها وتطفلها على الاشتراك في الحكم ، وهو امر ليس من اختصاصها في شيء .

وعلى الرغم من ذلك كله ، فلم تعد الظروف التي احاطت بالشعب الالماني ، بل باوروبا والعالم ، في اعقاب الحرب العالمية الاولى لتسمح للمفكرين وحملة الاقلام بالانكماش والانعزال . فقد اصبح عليها واجب ابداء الرأي في المشاكل الوطنية والدولية ، وفي مستقبل الحضارة ، وفي الحرب التي انتهت والتي ستبدأ من جديد . حتى ان الحكومات المتعاقبة بعد الحرب لم تجد بداً من الاعتراف رسمياً بصناعة القلم ، فانشأت وزارة المعارف الالمانية « اكاديمية الكتاب » . غير ان الكتّاب لم ينظروا الى هذه الرابطة بعين الجد . فقد كانت في اعتقادهم تقليداً سطحياً للأكاديمية الفرنسية ، اي لا هدف لها ولا غاية .

وعلى العموم ، فقد كانت جمهورية وايمار بابلاً جديدة لمختلف الاصوات . . اصوات متشائمة تنذر بانهيار المدنية ، وبوقوع ازمة ، وبالخراب المحتم . فالمستقبل لم يعد ، في نظر رجال الفكر ، يستحق اي اهتمام . وكل شيء ككل شيء آخر . فما نفع المفاضلة بين قانون وقانون ، او عمل وعمل

او حتى رأي ورأي . فكانت الحرية مطلقة لا حد لها . ولكن على حين غرة ، لم يعد من حرية على الاطلاق . .

وكان المفكرون الالمان ينقسمون الى فئتين : فئة اخذت بالوطنية الجامحة ، واخرى دانت بالكوزموبولية المتصفة بالسطحية ان لم يكن بكره البلاد واحتقارها . على ان هذا الانقسام الى فئتين لم يكن حاسماً ، اذ ظلت هنالك فئة معتدلة ثالثة .

هذه الفئة الثالثة حملت لواء الفكرة الجرمانية الصافية ودعت الى الحد من «الاستغراب» اي من الذوبان في الغرب او الوقوع تحت تأثيره . ويعود منشأ هذه الحركة بصورة منظمة الى سنة ١٨١٠ حين اسس البارون فون ارنيم « الطاولة المسيحية المستديرة » وحرم عضويتها على اليهود والفرنسيين واصدقاء الثقافة الفرنسية ولا يزال الصراع قائماً حتى اليوم بين اصحاب الفكرة الجرمانية الصافية وبين الداعين الى «الاستغراب» واعتبار الفكر الالماني جزءاً من الفكر الاوروبي العام .

ولقد ساد الاعتقاد بان الفترة اللاحقة لنهاية الحرب العالمية الثانية ستكون شبيهة بالفترة اللاحقة لنهاية الحرب العالمية الاولى . غير ان هذا الاعتقاد لم تثبت صحته الحوادث ، اذ رأينا المانيا الغربية تتكون سريعاً فتصبح بلداً مزدهراً يعج بالحركة .

سلسلة

أضواء على السياسة العالمية

صدر منها حديثاً بقلم خيرات البيضاوي :

٣ - وميض النار في المغرب العربي

الكتاب الذي يصور الصراع الدموي الرهيب الدائر اليوم في المغرب العربي .

من منشورات : دار البيضاوي - بيروت

ص . ب ٢٩٩٥ تلفون ٣١٣٠٧

الثمن : ١٠٠ ق . ل او ما يعادلها

تطلب المجموعة من دار البيضاوي

والمكتب التجاري - بيروت

عدد « الفنون » الممتاز

يضم عشرات اللوحات العربية والاجنبية التي تمثل اتجاهات الرسم الحديث .

هذا التكون المفاجيء لالمانيا الغربية حمل معه تكوناً جديداً لوضع المفكرين . فعلى الرغم من اننا لا نزال نسمع بعض التذمر من ان الكاتب لا يحتل مكانة محترمة ، فاننا من جهة اخرى نجد الكاتب الالماني دائم النشاط : مؤتمرات تعقد هنا وهناك ، ومدارس صيفية يدعى للمحاضرة فيها ، ومجلات دعاوة يطلب منه الاشتراك باعدادها وتنفيذها ، ومشاريع تقوم بها اليونيسكو ووظائف ثقافية في السلك الديبلوماسي مفتوحة امامه ، وبعثات ثقافية تنفق عليها اميركا ، ومحطات للراديو وسوق للكلام يتزاحم عليها المستهلكون . وهكذا نجد الكاتب الالماني في بحبوحة يحقق معها الحلم الذي يراود كل انسان : الزواج باكراً ، وتأثيث منزل ، واقتناء سيارة ، والعيش كما يعيش سائر الناس . فاذا كان موهوباً وبارعاً ، استطاع ان يكتب قصة يستهوي موضوعها الجماهير فيعم انتشارها وقد تجد طريقها الى السينما .

واذا كانت الاكثرية تكتب وعيونها على الجماهير ، فما زال هنالك اقليه تتمسك بالحقيقة . هي اقلية وقراؤها قليلون ، ذلك ان قراء الادب الرفيع هم في طريقهم الى الانقراض .

وحيث لا سوق لشبنجلر مثلاً ، فمن المحال ان يظهر في عالم الوجود . ان المنادين بالويل والثبور هم اليوم صامتون . وكذلك الدعاة الى «ثورة محافظة» او خصومهم اصحاب المبادىء اليسارية حتى الصراع بين النزعتين الشهيرتين : الاستغراب ، والحفاظ على الفكرة الالمانية الصافية ، قد زال اثره او كاد . فالاستغراب على ما يظهر قد انتصر .

اما السياسة فلم تعد محور الاهتمام . وفكرة « الفن لاجل الفن » قد عادت ، على ما يبدو ، الى الظهور . وعودتها هذه دليل على استقرار المجتمع الالماني .

على أن هذه الحالة الطبيعية قد تخدعنا . فالمانيا تعاني مشاكل اساسية لا يمكن للفكر الالماني ان يتجاهلها . او لم يعودنا الالمان توقع المفاجأة والمبادرة الغريبتين ؟ ومن يدري ، فلعلنا ، في هذه المرة ايضاً ، لن ننتظر طويلاً* . . .

* مقتبس من مقال لفولو مان في مجلة « انكاونتر » الانكليزية - ١٩٥٥